

هذه محاولة متواضعة لتحرير الدرس الأدبي من بعض قيم ومقاييس خاطئة ، احتكمت فيه زماناً وسيطرت ، ولا تزال تسيطر ، على فهمنا لتراثنا الأدبي ، وتوجه ذوقنا له وإدراكنا لوظيفته في الحياة ومكانه منها .

وقضيتنا الأولى والكبرى ، هي الفن والحياة . وتجربتنا التاريخية دلّت على ما بينهما من صلة وثيقة حتمية ، فحيثما كانت الحياة قوية زاهرة ، كان الأدب طليعتها وقائدها وصورتها ، وحيثما تخلفت وركدت ، كانت محتتها بالأدب تعادل محتته بها .

وعلى أساس هذه الحقيقة ، ارتدتُ التاريخ الأدبي في مجاله الدراسي وواقعه التاريخي . فبدأ لي أن الأحكام الأدبية والمقاييس النقدية التي خلفها لنا القدامى من مؤرخي الأدب العربي ونقاده تعرضت :

لمؤثرات ذوقية . قضت بها ظروف عصرهم ، وغلب عليها مزاج مجتمعاتهم . ومؤثرات اجتماعية واقتصادية ، من صراع العناصر وصدام المذاهب والطبقات . ومؤثرات سياسية ، تنازعت فيها السلطان قبائلٌ وأسر وشعوب ؛ وتفاوتت بينها نظم الحكم وأوضاعه .

ومؤثرات عقلية ، طرأ عليها ما طرأ من ثقافات شتى ، وحملت إليها الأجناس والشعوب التي تعربت أو اتصلت بالعرب ، ميراثها الحضاري والفكري .

كل هذا ، فيما نؤمن ؛ هو الذي وجه الفن العربي من قديمه إلى اليوم . وكل هذا . فيما نعتقد ، هو الذي قرر تلك الأحكام والقيم التي لم تكن سوى أصداء ونتائج ؛ لذلك الواقع المادي المعنوي . .

وقد حدد أولئك القدماء للشعراء منازلهم وأقدارهم ، واختاروا نماذج من الشعراء رأوها أجود ما قبل في بابها . ومرت عصور وأدهار ، وما يرال الشعراء حيث وضعهم الأقدمون ، وما تزال النماذج التي اخاروها ، موضع عنايتنا وتقديرنا واهتمامنا ، وما تزال أحكامهم ومقاييسهم باقية فينا ، نعيدها ونكررها ونُدور في نطاقها .